## الفصل الثاني

# الإنسان والفضيلة

إن الانسان الأول وهو آدم خلقه الله من تراب من غير أب . وهو بهذا يشبه عيسى عليه السلام الذى خلقه الله من غير أب . يقول عز وجل فى سورة آل عمران « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون » .

فآدم أبو البشر جميعاً فى أول الخلق . وقد خلقه الله وخلق منه زوجته حواء. قال تعالى فى سورة الزمر « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ». وقال تعالى فى سورة الأعراف « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها » ويذكر ابن سيرين فى كتابه « تفسير الأحلام الكبير ( ص ٢٥ ) ـ وهو الكتاب الذى يشكك أحمد أمين فى نسبته إليه * :

إن أول حلم أو رؤيا على الأرض هى ما رآه سيدنا آدم عليه السلام فقد أوحى الله تعالى إليه : « إنك قد نظرت فى خلقى فهل رأيت لك منهم شبيهاً ؟ قال : لا يا رب ، وقد كرمتنى وفضلتنى وعظمتنى ، فإجعل لى زوجاً تشبهنى أسكن إليها حتى توحدك وتعبدك معى . فقال الله تعالى له : نعم . فألقى عليه النعاس ، فخلق منه حواء على صورته . وآراه فى منامه ذلك . فانتبه وهى جالسة عند رأسه . فقال له ربه يا آدم ! ما هذه الجالسة التى عند رأسك ؟ فقال آدم : الرؤيا أريتنى فى منامى يا إلهى . .

وقد ورد فى الأثر « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء

---

* يقول أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام ص ٢٩٤ : إن ابن سيرين اشتهر بتفسير الأحلام وزيف عليه كتاب فى ذلك . وقد ذكره ابن النديم فى الفهرست ونسبه إليه . ولكننا لا نجد أثراً لشهرته فى تعبير الرؤى فى كتب المتقدمين أمثال طبقات ابن سعد .

خيرا . ولكن الإنسان فيما بعد آدم ذكراً كان أم أنثى يخلق من منى يمنى . قال تعالى فى سورة القيامة « ألم يك نطفة من منى يمنى » . وقال تعالى فى سورة الحج « فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة » . وقال فى سورة المؤمنون « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ويلخص لنا القزويني فى كتابه « عجائب المخلوقات » ص ٢٣١ حقيقة الإنسان كما شرحها ووضحها مفكرو الإسلام فيقول :

إعلم أن الانسان مجموع مركب من النفس والبدن ، وأنه أشرف الحيوانات وخلاصة المخلوقات . ركبه الله تعالى فى أحسن صورة روحاً وبدناً . وخصه بالنطق والعقل سراً وعلناً . وزين ظاهره بالحواس والحظ الأوفى ، وباطنه بالقوى ما هو أشرف وأقوى . وهيأ للنفس الناطقة الدماغ وأسكنه أعلى محل وأوفق رتبة. وزينه بالفكر والذكر والحفظ . وسلط عليه الجواهر العقلية لتكون النفس أميره والعقل وزيره ، والقوى جنوده ، والحس المشترك مريده ، والأعضاء خدمه ، والبدن محل مملكته ، والحواس يسافرون فى جميع الأوقات فى عالمهم ، ويلتقطون الأخبار الموافقة والمخالفة ، ويعرضونها على الحس المشترك الذى هو واسطة بين النفس والحواس . . وهو يعرضها على القوة العقلية لتختار ما يوافق، وتطرح ما يخالف ، فمن هذا الوجه فالإنسان عالم صغير . ومن حيث أنه يتغذى وينمو قالوا نبات . ومن حيث أنه يحس ويتحرك قالوا حيوان. ومن حيث أنه يعلم حقائق الأشياء قالوا ملك . فصار مجمعاً لهذه المعانى . وهو يصرف همه إلى جهة من هذه الجهات ليلتحق بها . فإن كان قد صرف همته إلى الجهة الطبيعية فيكون راضياً من أمر دنياه بالتغذى وتنقية الفضول . وإن كان إلى الحيوانية فيكون إما غضوباً كسبع ، أو أكولاً كبقرة ، أو شرها كخنزير ، أو جزعا ككلب ، أو حقوداً كجمل ، أو متكبراً كثمر ، أو ذا روغان كثعلب . أو يجمع هذا كله فيكون شيطاناً مريداً . وإن كان صرف همته إلى الجهة الملكية فيكون متوجهاً إلى العالم الأعلى ، ولا يرضى بالمنزل الأسفل والمربع الأدنى . فيكون

مراداً من قوله عز وجل فى سورة الإســـراء « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً . ( محفوظ على عزام : ص ١٦٤ نقلاً عن القزوينى : عجائب القزويني المخلوقات ص ٢٠ ) .

**الإنسان والأخلاق :**

إن نظرة الإسلام إلى الإنسان هى نظرة أخلاقية بصفة أساسية ذلك أن الهدف من حياة الإنسان هو عمل الخير فى الحياة الدنيا . ولا يكتمل عمل الخير للإنسان فى الدنيا إلا بإقامة شعائر الله والتمسك بالأخلاق الحسنة . وغاية الأخلاق الحسنة تحقيق سعادة الفرد فى الدارين . والشريعة هى التى تربى نفس الإنسان على الآداب الحسنة والأخلاق الكريمة حتى تتعودها . وقد ورد فى الأثر « المسلمون كأسنان المشط فى المساواة ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وصالح العمـــل .

**اختلاف الأخلاق باختلاف النفوس :**

تختلف الأخلاق باختلاف النفس . فمن الناس من جبلت نفوسهم على الخير. ومنهم من جبلت نفوسهم على الشر . ويمكن تحسينها بالنصح والإرشاد والتوجيه والزجر والعقاب والوعد والوعيد . وهناك نوع ثالث لا يقبل طبعه الأخلاق الحسنة لخبث معدنه . وهذه الطائفة فى نظر بعض علماء المسلمين من جملة الأشرار الذين لا يرتجى صلاحهم . وقد عبر الشاعر العربي عن هذا المعنى بقوله :

إذا كان الطّباع طباع السوء . . . فلا أدبٌ يفيد ولا أديب

كما أن الأخلاق تختلف باختلاف الأمم والشعوب فلكل أمة أخلاقها الخاصة بها . ومن الطبيعى أن يكون للأمة الاسلامية أخلاقها الخاصة بها . كما أن الأخلاق تختلف باختلاف العصور والأزمنة ومنها الثابت الأصيل ، ومنها المتغير حسب أحوال الناس وتغير زمانهم .

**الأخلاق من تمام الإيمان والكمال الإنسانى :**

تعتبر الأخلاق فى الاسلام من تمام الايمان والكمال الانسانى ذلك أن الإيمان

يكتمل بالأخلاق . وقد سئل النبى (ص) أى المؤمنين إكمل إيماناً ؟ قال أحسنهم خلقاً . وعندما سئل النبى (ص) عن أحب عباد الله إليه ، قال « أحسنهم أخلاقاً » . ويعتبر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من القواعد الأخلاقية الإسلامية الأصيلة ومن تمام كمال المسلم .

**الأخلاق بالتخلق :**

عندما يتحرى الإنسان فى سلوكه مراعاة الأخلاق الحسنة والإلتزام بآداب السلوك وما تمليه الفضيلة فإنه يصبح بالتدريج إنساناً خلوقاً فاضلاً . فقد روى عن النبى (ص) قوله « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشر يوقه » . وقد قيل فى ذلك : اجعلوا أقوالكم أقوى لكم ولا تجعلوا أفعالكم أفعى لكم ولا تجعلوا أعمالكم أعمى لكم . ويروى عن النبى (ص) قوله: « خالق الناس بخلق حسن » .

**من الأخلاق الإسلامية ما هو صدقه :**

بلغ من حرص الإسلام على حث المسلم على اتباع السلوك الأخلاقى المرغوب أن جعله صدقة يثاب المرء عليها. فالكلمة الطيبة صدقة وتبسمك فى وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل فى أرض الضلال صدقة وإماطة الأذى عن الطريق صدقة وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة . فهذه كلها وما شابهها أمور أخلاقية من تمام كمال الإنسان .

**القدوة ضرورية لتعليم الأخلاق :**

وهذا يعنى أن تعليم الأخلاق من خلال النصح والإرشاد والتوجيه لا يؤتى ثماره إلا إذا كان القائم به يعمل بما يقول . وللأسف أننا نجد أن كثيراً من الآباء والمعلمين ينصحون أبنائهم بعمل شئ وهم أنفسهم لا يعملونه أو يعملون عكسه . فكلاهما ينهى الأبناء عن التدخين مثلاً وهما يدخنان . والأب قد يأمر ابنه بالصدق فى القول وعدم الكذب . ولكنه فى موقف آخر يقول له مثلاً : اذا سأل فلان عنى فقل له إننى غير موجود . ومن هنا كان من الضرورى فى الأخلاق تطابق القول مع العمل . ويروى أن الإمام سفيان الثورى كان يعظ الناس يوماً

فدخلت عليه إمرأة وسلمته رقعة وانصرفت . فأخذ يقرؤها فإذا فيها :

يا أيها الرجل المعلم غيـــــــــره . . هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى . . كيما يصح به وأنت سقيـم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنـــــــا . . أبداً وأنت من الرشاد عديم
أبدأ بنفسك فإنها عن غيهـــــــا . . فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثلـــــــه . . عار عليك إذا فعلت عظيـم

فلما قرأ الإمام الثورى هذا الكلام تأثر به وقام واعتزل الناس واعتكف فى بيته حتى وافاه الأجل .

**الأخلاق طريق العيش والكسب :**

ذلك أن الإنسان الذى حسنت أخلاقه وصفاته يجد أبواب الحياة أمامه مفتوحة . ويرضي عنه الناس كما يرضى عنه ربه لأن رضا الله من رضا الناس . ويجعل الله فى وجهه القبول ويحبه الناس ويثقون فيه ويطمئنون إلى التعامل معه. وهذه كلها صفات تؤهله لفتح أبواب الرزق أمامه . وقد قال الله تعالى فى سورة القصص على لسان بنت النبى شعيب عليه السلام « قالت إحداهما يأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » . فهاتان الصفتان إحداهما جسمية وهى القوة والأخرى خلقية وهى الأمانة . وكلتا الصفتين أهلت صاحبها إلى أن يكون أفضل من غيره فى الاستخدام والتقبل الإجتماعى .

**الإنسان الفاضل :**

يفطر الإسلام إلى الإنسان نظرة أخلاقية بالدرجة الأولى كما أشرنا ويحثه دائماً على التمسك بأهداب الفضيلة . والإنسان أشرف مخلوق على وجه الأرض . ومن هنا كان شرف العلم المختص به وهو علم الأخلاق الذى يعتبر عند علماء المسلمين أشرف العلوم وأجلها لأنه يتعلق بجوهر الانسان وأهم صفات النفس الانسانية دون سائر المخلوقات . والإنسان يكون فاضلاً بأخلاقه وأعماله وأفعاله وسلوكه .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته ( ص ٣٧٣ ) « إن الناس بشر متماثلون - وإنما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل » . فالإنسان يستمد قيمه الإنسانية من مقومات خلقه وفضائله . وروى عن إبن عباس أنه قال: الناس يتفاضلون فى الدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق . ويتفاضلون فى الآخرة بالنفوس واليقين . وأنقاهم أحسنهم يقينا وأزكاهم عملاً وأرفعهم درجة . ( الجاحظ : المحاسن والأضداد : ص ٨٩ ) .

ويرى ابن مسكويه أن الناس تتفاوت فى الجوهر وأن بعضهم يفضل الآخر كما يفضل الجواد الأصيل البرذون المهجن ، وأن الناس تتفاوت فى الشرف والخسة بمقدار اتباعهم للعقل أو سعيهم وراء شهوات وملذات الحس . وأعلى النفوس مرتبة تلك التى تخلصت من الأهواء والشهوات وحكّمت العقل واتبعته . ذلك أن الانسان الفاضل هو الذى يعلى سلطة العقل على نداء الشهوة والحس. والإنسان الفاضل بحكم تعريفه هو الذى يتمسك بالفضيلة . وهو الذى يؤمن بأن شرف الغاية يقتضي شرف الوسيلة . وأشرف غاية للإنسان هى بلوغ الفضيلة والكمال فى السلوك والتعامل الأخلاقى . وشرف الوسيلة حسن اتباع أوامر الشرع ونواهيه. والفضيلة كموضوع للدراسة والبحث كانت محل اهتمام الفلاسفة والحكماء على اختلاف الأزمان وكر العصور منذ القدم . فالفضيلة عند فليسوف الإغريق سقراط » هى المعرفة وبدون المعرفة لا يتم العمل . فكل فضيلة علم فالتقوى مثلا هى العلم بما يجب على الإنسان نحو ربه . والعدالة هى العلم بما يجب على الإنسان نحو الآخرين . والقناعة هى العلم بما يجب على الإنسان نحو نفسه - ( چورچ غريب : ص ١٥ ) .

يقول ابن خلدون فى مقدمته ( ص ٢٧٤ ) : إذا فسد الإنسان فى قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخا على الحقيقة . والإنسان الفاضل هو الذى يعمل بما ينفعه فى دينه ودنياه ، وهو الذى يبتعد عن كل مالا ينتفع به فى دينه ودنياه . وفى هذا المعنى يقول ابن قيم الجوزية فى كتاب الفوائد» ( ص : ١١٥ ) عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها : علم لا يعمل به ؛ وعمل لا إخلاص فيه ولا افتداء ؛ ومال لا ينفق منه فلا يستمتع به جامعه فى

الدنيا ولا يقدمه أمامه إلى الآخرة ؛ وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به ، وبدن معطل عن طاعته وخدمته ؛ ومحبة لا تتقيد برضاء المحبوب وامتثال أوامره ؛ ووقت معطل عن استدراك فارط أو اغتنام بر وقربة ؛ وفكر يجول فيما لا ينفع ؛ وخدمة من لا تقربك خدمته إلى الله ولا تعود عليك بصلاح دنياك ؛ وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله وهو أسير فى قبضته ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً » ، ويقول إن أعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة : إضاعة القلب وإضاعة الوقت . فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة وإضاعة الوقت من طول الآمال . قال الشاعر العربى:

وعاجز الرأى مضياع لفرصته . . حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

ويرى ابن مسكويه أن الفقراء قريبون من الفضائل قادرون عليها متمكنون من نَيْلها والإصابة منها . ويضرب مثلاً بملوك الفرس الفضلاء فقد كانوا لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفاً عليهم من سوء تربيتهم . وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم إلى النواحى البعيدة عنهم . وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء خشونة العيش ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم فى ذلك مشهورة . ( ابن مسكويه : ٧٤ ) .

ويفرق محى الدين بن العربى بين محمود الأخلاق ومذمومها . وهو يرى أن القلة القلية من الناس هم المجبولون على الأخلاق الحميدة وأن معظم الناس تغلب عليهم مذموم الأخلاق ( نازلى اسماعيل : ص ١٩٩ ) . وقلما يوجد بين الناس من كملت صفاته وخلا من العيوب . لأن الإنسان خطاء وخير الخطائين التوابون . والإنسان فى تعامله مع الآخرين لابد أن يتوقع منهم وجود نقص فى أخلاقهم وصفاتهم ، وعليه أن يتقبلهم بهذا النقص وإلا لما بقى له صديق على وجه الدنيا. وفى هذا المعنى يقول الشاعر العربى :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

ويرى ابن العربى أن من الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ولا الخلق الجميل لرداءة معدنه وخبث جوهره . وهذه الطائفة هى من جملة الأشرار الذين لا يرجى صلاحهم .

والإنسان الفاضل أقرب الشبه إلى الملائكة . ويذهب ابن العربى مذهب أفلاطون فى القول بأن الإنسان لا يبلغ مرتبة الفضيلة إلا بمعرفة ماهيات الأشياء وغايتها وعللها وأسبابها . وهذا يعنى النظر فى العلوم وتحصيل جواهر مكنونها. ويقول ابن مسكويه إن الكمال الخاص بالإنسان كمالان لأن له قوتين : إحداهما القوة العالمة والأخرى القوة العاملة . وهو بالقوة الأولى يسعى إلى تحصيل المعارف والعلوم ، وبالقوة الثانية يعمل على تنظيم أموره وترتيبها . وهذا يعنى أن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بعقله وإرادته وأخلاقه لا تكتمل إلا بكمال الفعلين : النظر والعمل . وبذلك تتحقق سعادته التامة . والنظروالعمل كلاهما يحتاج إلى الآخر . فالنظر بدء والعمل تمام . . وبدء بلا تمام يكون ضائعاً وتمام بلا بدء يكون مستحيلاً . وهذا يعنى أن المعرفة والنظر تحقق للإنسان غرضاً أما العمل فهو من كمال الغرض ( ابن مسكويه : ص ٥٠ ) فكمال الإنسان إذن كمالان : كمال أول وهو العلم الذى تدفعه إليه قوته العالمة وكمال ثان هو الأخلاق الذى تدفعه إليها قوته العاملة . أو هو كمال النظر والفكر وكمال العمل والتدبير والتصرف . ( المرجع السابق ) .

والواقع أن موضوع الإنسان الفاضل والبحث عنه كان الضالة المنشودة التى شغلت فكر الفلاسفة والحكماء على اختلاف الأزمان وكر العصور . ويؤثر عن ديوجين الكلبى وهو من فلاسفة الإغريق الساخرين أنه كان يسير فى ضوء النهار بمصباح يحمله فى يده . وعندما سئل عما يفعل قال أبحث عن إنسان وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك . ويروى عنه أيضاً أن الاسكندر الأكبر وقف عليه يوما وهو جالس فى الشمس وراح يحسن له ترك هذه الحياة الخشنة ويعده بأجزل العطايا إن هو ترك ما فيه وانضم إلى بلاطه . فكان رد هذا الزاهد العنيد عليه : كل ما أريده منك أن تنصرف وتترك ما حجبته عنى من ضوء الشمس . فمضى الإسكندر آسفاً وهو يقول لو لم أكن ، ما أحببت أن أكون سوى « ديوجين » (على معبد فرغلى : ص ١٤٤ ) . وتجدر الاشارة إلى أن ديوجين كان أستاذ « زينون » توفى ١٦٤ ق.م الذى أنشأ المدرسة الرواقية المشهورة وكان قد أنشأها فى رواقة بأثينا وكان مجتمعاً للشعراء . ومن هذا الرواق أخذت المدرسة اسمها . كما استمد أتباعه إسمهم منها .

وفى تاريخ حضارتنا الإسلامية أمثلة كثيرة للإنسان الفاضل . ويأتى فى المقدمة رسولنا الكريم الذى كملت صفاته والذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وقد وصفه رب العزة بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم » وبعده الخلفاء الراشدون والسلف الصالح أمثلة حية للإنسان الفاضل . وفى أجيالنا السابقة والمعاصرة أمثلة أخرى كثيرة. ومثل هؤلاء الناس يعتبرون علامات مضيئة فى جبين أمتنا ودعامات قوية فى سبيل رقيها وتقدمها . وقد سبق أن أشرنا إلى كلام المنفلوطى فى سعيه وراء ضالته المنشودة « الفضيلة » التى عيي بأمر الوصول إليها .

## أهمية التربية فى غرس الفضائل الأخلاقية :

تلعب التربية الأولى للطفل منذ مولده أهمية كبرى فى تشكيل أخلاقه وسلوكه . وهى مسئولية الأسرة والوالدين بالدرجة الأولى . وقد عبر شاعرنا العربى عن ذلك بقوله :

وينشأ ناشئ الفتيان منا . . على ما كان عوده أبوه

وللمدرسة دور مكمل للأسرة . ومن هنا كان من الضرورى على الآباء العناية بتربية الأبناء . وإهمال تربية الأبناء تعتبر جريمة يترتب عليها أوخم العواقب على حد قول الشاعر .

إهمال تربية البنين جريمة . . عادت على الآباء بالنكبات

ويقول ابن مسكويه الملقب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى بضرورة غرس الفضائل فى نفوس النشئ منذ الصغر وأن نحاسبهم على أخطائهم وننبههم إليها منذ اللحظة التى يظهر منها حياء الطفل . فالحياء فى نظره دليل على بزوغ العقل عند الطفل . والعقل هو طريق تأديبه وتنشئته على الفضيلة والأخلاق الحسنة . ذلك أن ابن مسكويه لا يذهب مذهب من يقول بفطرية الأخلاق وإنما باكتسابها والتعود عليها حسب الطبع والمزاج . وهو يرى أن النفس الإنسانية صفحة بيضاء لم تنتقش بعد بصورة فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأت عليها واعتادتها حسب طبيعتها . وقد ردد الغزالى هذا القول ونقله عن ابن مسكويه . كما أننا نجد صدى هذا الرأى يتردد بعد مئات السنين عند جون لوك الفيلسوف المعروف بمقولته : العقل صفحة بيضاء Tabula Rasa ولهذا يجب حث الطفل على

الفضيلة وحسن الخلق منذ نعومة أظفاره لأن الفضيلة كما يراها علماء المسلمين لا تكتسب إلا بالتدريج .

## تأديب الصبيان :

يعقد ابن مسكوية فى كتاب تهذيب الأخلاق فصلاً فى تأديب الأحداث والصبيان خاصة . ويقول إنه نقل أكثره عن كتاب بروسن . ويقول إن أول ما ينبغى أن يُتَفَرَّس فى الصبى ويستدل به على عقله الحياء فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح . . فإذا نظرت إلى الصبى فوجدته مستحياً مطرقاً بطرفه إلى الأرض غير وقاح الوجه ولا محدق إليك فهو أول دليل لمجابته وأنه مستعد لقبوله الفضيلة . لأن نفس الصبى ساذجة لم تنقش بعد بصورة . فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها كما أشرنا. وأول ما ينبه إليه الصبى حب الكرامة لا سيما ما يحصل عليه بالدين دون المال . ثم يمدح الأخيار عنده ويمدح هو نفسه ويكافأ إذا ظهر شئ جميل منه . ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه . ويؤاخذ على اشتهائه للمآكل والمشارب والملابس الفاخرة . ويزين عنده خلق النفس والترفع عن الحرص فى المآكل خاصة وفى اللذات عامة . ويحبب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشئ المعتدل والاقتصاد فى التماسه . ويذكر ابن مسكويه رأيا غريباً غير مألوف وهو أن الصبى فى ابتداء نشوه يكون على الأكثر قبيح الأفعال إما كلها وإما أكثرها . فإنه يكون كذوباً ويخبر ويحكى ما لم يسمعه ولم يره . ويكون حسوداً سروقاً نماماً لجوجا ذا فضول ، أضر شئ بنفسه وبكل أمر يلابسه . ثم لايزال به التأديب والسنن والتجارب حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال . ثم يطالب بمحاسن الأخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب ويحذر النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جداً . ويحذر ابن مسكويه من توبيخ الطفل ومكاشفته بما فعله من خطأ بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولا هم به ، لا سيما إن ستره الصبى واجتهد فى أن يخفى ما فعله على الناس . فإن عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده ما أتاه ويحذر من معاودته . فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ما

كان استقبحه . وهان عليه سماع الملامة . ويشير ابن مسكويه إلى ناحية مهمة فى تأديب الصبى وهو أن يوجه إليه النصح سراً . لأن النصح اذا كان علنا أمام الناس كان أقرب إلى التوبيخ منه إلى النصح . وقد قال الشاعر العربى فى هذا المعنى :

تعمدنى بنصحك فى انفرادى . . وجنبنى النصيحة فى الجماعه

فإن النصح بين الناس نـــوع . . من التوبيخ لا أرضى استماعه

وينبغى أن يمنع الصبى من كل فعل يستره ويخفيه فإنه ليس يخفى شيئاً إلا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح . ويمنع من النوم الكثير فإنه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خاطره . هذا بالليل . فأما بالنهار فلا ينبغى أن يتعوده البتة . ويعود المشى والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود أضدادها . ويعود ألا يكذب وألا يحلف البتة لا صادقاً ولا كاذباً فإن هذا قبيح بالرجال مع الحاجة إليه فى بعض الأوقات . فأما الصبى فلا حاجة به إلى اليمين . ويعود قلة الكلام . فلا يتكلم إلا جواباً ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ومن السب واللعن ولغو القول . ويعود حسن الكلام وظريفه وجميل اللقاء وكريمه . ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه . وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين . وينبغى أن يؤذن له فى بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً ليستريح إليه من تعب الأدب وهو قول ردده الغزالى فيما بعد . ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم .

**قلق الإنسان المعاصر :**

حاول العلماء والفلاسفة تفسير قلق الإنسان المعاصر وأشاروا إلى ثلاثة مصادر رئيسية لقلق الإنسان . أولها قلق غيبى أنطولوجى مصدره حقيقة فناء الإنسان . فالإنسان المعاصر قلق لأنه يعلم أنه سيموت . لكن كثيراً من الناس لا يحبون الموت ويحبون الحياة ويتمسكون بها ويلقهم جداً حقيقة الموت وما لم يؤمن الإنسان بأن الموت حق فإن معنى الموت يصبح بالنسبة له شبحاً رهيباً . ذلك لأن الموت يعنى العدم والفناء وإنتهاء رحلة الحياة وبداية رحلة المجهول .

كما أنه يحيل كل أمل للإنسان فى هذه الحياة وهماً وسراباً فى هذه الحياة وهماً وسراباً . إن الصراع من أجل الحياة سنة الله فى كل خلقه وكائناته . ولكن هذا الصراع بالنسبة للإنسان قد يتحول إلى عملية رهيبة تنغص عليه حياته وتؤرقه . ومع أن الموت كما يقال هو هازم اللذات ومفرق الجماعات فان المسلم المؤمن لا يخشى الموت لأنه يعلم أنه نهاية حياة كل إنسان . وأنه ملاق ربه وأن سيجد عنده جنة المأوى التى وصفت بأن فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولذلك يصدق قول هؤلاء الفلاسفة أكثر ما يصدق على غير المسلمين أو من ضعف إسلامهم .

والمصدر الثانى لقلق الإنسان يتمثل فى الذنب وإحساسه شعورياً أو لا شعورياً بأنه سيخالف لا محالة قوانين الأخلاق بحكم الظروف التى يعيشها وما فيها من ضغوط وتوترات . والذنب يجعل الإنسان فريسة لوخز الضمير إذا كان ضميره حيا . وبالتالى فإن الإنسان يرفض نفسه ولا يرضى عنها . ولكن المسلم الذى يحاسب نفسه باستمرار ويلتزم بتعاليم ربه لا يعانى من هذا القلق وإن كان كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . والتوبة باب كبير للرحمة تعيد للمسلم اتزانه النفسى والروحى بعد وقوعه فى الخطأ وتكفيره عنه وهو بهذا كأنما يغسل نفسه من الذنب فيرتاح ضميره ويهنا باله وتعود إليه طمأنينته .

والمصدر الثالث لقلق الإنسان المعاصر هو اللامعقولية . فهو يرى أشياء تحدث فى الحياة لا تخضع للمنطق . ويجد نفسه فى مواجهة تساؤلات لا يجد لها حلاً . وهو ما يؤدى به إلى مزيد من الحيرة والتناقض . فالانسان يقع عندئذ فريسة التشكك وإنعدام الهدف والشعور بالضياع ولكن الإنسان المؤمن يجد لحياته معنى ومغزى وهدف كبير يعمل له ومن أجله وهو سعيه الدؤوب لبلوغ الكمال واستعمار الأرض وتحقيق رسالته فى استخلاف ربه له وكدحه فى الأرض حتى يلاقى ربه .

ويرى هؤلاء العلماء والفلاسفة أن القلق فطرى وطبيعى بالنسبة لحياة الإنسان . بيد أن هذا القلق يزداد فى فترات التحول التاريخى والإجتماعى . كما أن طابع القلق يختلف من عصر لعصر . فنهاية العصور الوسطى تميزت بالقلق

الخلقى والدينى . كما عبرت عنه صكوك الغفران وما تلا ذلك من حركة الإصلاح الدينى .

والأنواع الثلاثة من القلق تمتزج معاً فى كل عصر وفى كل زمان ويحتاج الإنسان فى خضم هذا البحر الزاخر من القلق الذى يحيط به أن يجدلنفسه مخرجاً أو عاصماً يخفف عنه وطأة هذا القلق إن لم يمكن التخلص منه تماماً . ولا مناص للإنسان اذن من فلسفة رشيدة توجه حياته توجيهاً سليماً يجعل له من هذه الحياة معنى وهدفاً يسعى إليه . كما تستطيع هذه الفلسفة أن تزوده ببعض القيم والإتجاهات التى تساعده على التغلب على ما يصادفه من قلق . ولابد للإنسان فوق كل هذا من إغناء حياته الدينية وأن يتزود بالحكمة الإلهية وأن يرجع دائماً إلى خالقه ورازقه فله فى خالقه عصمة وله فى دينه وقاية وتوجيه . وفى كل هذه الجوانب يكون للتربية والأخلاق الإسلامية دور هام فى تخفيف قلق الإنسان المسلم المعاصر ومساعدته على التغلب على المصدر الرئيسى الذى ينغص عليه حياته ويحول دون استمتاعه بها . ومما يساعده على ذلك إيمانه بحياته فى الدراين دار الدنيا والآخرة وأن يعمل لكليهما ويتقبل قدره الذى تحدده طبيعة أعمالة فيهما .

يقول الأصفهانى فى « الذريعة إلى أحكام الشريعة » ( ص ١٥ ) إن الإنسان فى هذه الدار كما قال على رضى الله عنه : الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه يسافر به سير السفينة براكبها . فالإنسان فى دنياه مسافر ويحتاج في رحلة حياته فى الدنيا إلى التزود بما يلزمه فى السفر . وعليه فى سبيل ذلك أن يكد ويكدح حتى ينتهى إلى دار القرار . قال تعالى « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » (الأصفهانى تفضيل النشأتين : ص ١٣٦ ) وبالموت يتم كمال الإنسان . وفى ذلك يقول الأصفهانى : إعلم أن الموت المتعارف الذى هو مفارقة الروح للبدن هو أحد الأسباب الموصلة للإنسان إلى النعيم الأبدى وهو انتقال من دار إلى دار . . ولولا هذا الموت لم يكمل الإنسان . فالموت إذاً ضرورى فى كمال الإنسانية ( تفضيل النشأتين : ص ٢٠٠ ) .